المرأة والخمر عند الأعشى

لو بحثنا فى شعراء الجاهلية جميعهم ، حتى الذين اشتهروا منهم بالعشق والحب ، لم نجد فيهم من وصف المرأة مثلما وصفها الأعشى ، ولا ذكرها وتحدث عنها مثلما ذكرها وتحدث عنها الأعشى . ولو أنا درسنا شعراء الجاهلية لم نجد فيهم من تحايل للوصول إلى المرأة والتقرب إليها كما تحايل الأعشى عن صدق يدفعه بطبعه ، وعن محرك يميل به فى فطرته . فهو يعتمد فى ذلك على زينته مثلا :

ولقد أرجِّل جمتى بعشية للشرب قبل سنابك المرتاد
والبيض قد عنستْ وطال جراؤها ونشأن فى قن وفى أذواد
ولقد أخالسهن ما يمنعننى عُصُراً يملن علىَّ بالأجياد

أو يعتمد على رسله :

فبعثت جنيًّا لنا يأتى برجع جوابها
فمشى ولم يخش الأنيسَ ، فزارها وخلا بها

وأحياناً أخرى يعتمد على شعره ومجده أو مجد قومه :

فإن شئت أن تُهدىْ لقومى فاسألى عن العز والإحسان أين مصيرها
ولا تصرمينى واسألى ما خليقتى إذا ردَّ عافِى القدر من يستعيرها

وينتهز الأعشى لذلك الفرص ، ويختلس المناسبات فى الليل والنهار وبين الرجال والحراس ، وحين يغيب الأهل والأقارب :

قد بت رائدها وشاة محاذر حذرا يقل بعينه أغفالها
فظللت أرعاها وظل يحوطها حتى دنوت إذا الظلام دنا لها

فرميت غفـلة عينه عن شاته ... فأصبت حبة قلبها وطحالَها
حفظ النهارَ وبات عنها غافلا ... فخلتْ لصاحب لذة وخلا لها

ويتهم الأعشى فى سبيلها كل ناصح ورشيد :

ومستدبر بالذى عنـده ... على العاذلات وإرشادها

والأعشى طلب المرأة شابًّا ، وتحسر على فقدانها شيخاً .

رأت عُجُزاً فى الحى أسنانَ أمها ... لداتى ، وشبانُ الرجال لِداتُها
فشايعها ما أبصرت تحت درعها ... على صومنا ، واستعجلتها أَناتها

وقال يعذر فتاة صدته فى شيخوخته :

ألا قل لِتيَّاكَ ما بالُها ... أللبين تُحْدَجُ أجمالُها ؟
أم للدلال فإن الفتـا ... ة حق على الشيخ إدلالها
فإن يك هذا الصبا قدذبا ... وتطلاب تَيـَّا وتسآلها

ثم يتمناها ويتمنى أن تحور إليه لمته فى آهة باكية :

فأنى تحوّل ذا لمـة ... وأنىّ لنفسك أمثالُها ؟

بل يريد الأعشى أن يتكلف فى طلبها أبلغ المشاق .

وَلَوَ ان دون لقائها ... ذا لِبدة كالزُّجِّ نابُه
لأتيته بالسيف أمـــشى لا أهدولا أهابه

ولقـد وصف الأعشى المرأة : وصف جمالها ووجهها وجسدها وثيابها ومواكبها ورحيلها ، ولم يترك فيها موضعاً يوصف إلا وصفه ، وصوره ورسمه فى إجادة ودقة :

بيضاء جمـاء العظام لها ... فرع أثيث كالحبال رجِلْ
إذ هى تصطـاد الرجال ولا ... يصطادها إذا رماهـا الأبل
كأن طعم الزنجبيل وتفا ... حًا على أرْىِ الدبور نزل

ثم يصف نساء يسارقن النظر من وراء الكلل :

السارقات الطرف من طعن الـ ... حى ورقمٌ دونها وكِلَلْ
فيهن مخروف النواصف مسـ ... روق البغام شادن أكحل
رخص أحم المقلتين ضعيـ ... ف المنكبين للعناق زجل

أو يصف امرأة فيقول :

وإذا غزال أحور الـ ... عينين يعجبنى لِعابُهْ
حسن مقلد حَلْيِه ... والنحر طيبـــة ملابه
غراء يبهـــج زوله ... والكف زينها خَضابه

أو يصف نساء على الحدوج :

واستقلت على الجمال حدوج ... كلهـــا فوق بازل موقوفِ
خاضعات يظهرن أكسية الخزِّ ... (م) ويبطن دونه بشـفوف
وحثثن الجمال يسهكن بالبا ... غز والأرجوان خمل القطيف

إلى مثل ذلك الجو العجيب الذى أحاط الأعشى المرأة به ، ورآها بينه وأرادها أن توجد فيه ؛ وهو جو سحرى جميل كجمال المرأة نفسها ، وهو جو عَبِق بالمسك والكافور والزنجبيل وأنواع الفواكه ، وجو مفعم بالأزهار والورود والأقحوان والزنبق ، وجو فيه رقص وغناء وزمر ، وفيه خمر وقمار ، وفيه عهر ومجون ؛ وهو الجو الذى تحاط به المرأة حين تقودها الدوافع التى تلقى بها فى أيدى مثل هذا الرجل أو أضرابه . فالأعشى إذاً قد بهرته المرأة وهاجت نفسه ، فهو يحسها بجميع حواسه إحساساً صادقاً قويًّا ، وإحساساً شرهاً بهيجاً ، وإحساس المتفتح للحياة وألوانها بكل نافذة من نوافذ نفسه .

ولكنا مع ذلك الوصف وتلك العناية وذلك الاهتمام، لا نستطيع مطلقاً أن نقول إن الأعشى أحب المرأة يوماً أو احترمها ، ولا أن نقول إنه قد عشق المرأة عشق الود الخالص أو تعلق بها تعلق العاطفة المشبوبة . فإذا قال الأعشى إنه عشق فقد بدأ يكذب . فهو لم يتصل بامرأة ما اتصالا عاطفيًّا ولا اتصالا نفسيًّا ، ولم تكن له وشيجة يمكن أن نطلق عليها آمنين اسما من أسماء الحب العذرى أو

الهوى البريء . ونستطيع بيسر وبغير كد أن نتصور للأعشى أكثر من علاقة واحدة ، وأكثر من موضوع واحد . فما أكثر اللائى تعرّف إليهن الأعشى ومازجهن واختلط بهن فى وقت واحد !

لهذا لم نر فى شعر الأعشى أحوال العاطفة العاشقة وأطوارها وتجاربها ، ولم نعثر فى شعره على اختلاجات القلب الخافق ولا وساوسه ولا آماله ومخاوفه . ولم نلق فى غزله تلك العاطفة المجردة السامية ، أو تلك المعانى المثالية أو الأحاسيس العفة المخلصة الطاهرة المحرومة ، أو ذلك الهيام الذى ينزع فيه الكائن الحى بكل وجوده إلى المخلوقة التى تكمله نزوع الوجد الملتهب والحنين المستعر .

إنما كان الأعشى عاشق جمال حسى فى المرأة وصائد متعة جسدية مؤقتة

ولو ان دون لقائها جبلا مزلقة هضابه
لنظرت أنى مرتقا ه وخير مسلكه عقابه

لماذا ؟ ألأن الوجد البريء يدفعه أو الشوق النزيه يوحى به ، أو الوحشة النفسية تزجيه وتحمله ؟ كلا . وإنما لأن المحب فى نظره دَنِسٌ ثيابه :

لأنيتها إن المحب (م) مكلف دَنِسٌ ثيابُه

بل كان همه من المرأة أن يقول :

من كل بيضاء ممكورة لها بشر ناصع كاللبنْ
عريضة بوص إذا أدبرت هضيم الحشا شختة المحتضن
يصب لها الساقيان المزا ج منتصف الليل ن ماء شن

والأعشى كان لذلك يطلب فى المرأة ألوانها الزاهية البراقة اللامعة ، وهو فى ذلك مستهتر متهتك لا يبالى ولا يخجل ، مسرف مبالغ لا يقنع ولا يرتوى ، حتى فى أيام شيبه وفى عهد كهولته نراه يتطلع بعين متشهية إلى الماضى الماجن ، ويعود بذاكرته إلى أحداثه الدابرة .

والغريب أن رجلا كالأعشى — وهو على إلحاحه هذا وراء المرأة — لا نجد عنده ذلك الضعف والوهن ، أو ذلك التخاذل وتلك الذلة التى تصحب فى العادة مثل هذا الصنف من المزاج ، أو تلازم أشباه هذا الضرب من الطبع . ولعل

ذلك كان راجعاً إلى نجاحه فيما يبغيه ، أو إلى أنه كان يجد الفريسة والشريكة — إن صح هذا التعبير — من غير مشقة . وبذلك لم تكن به حاجة إلى اصطناع الذلة أو اصطناع الخنوع .

ولقد كنا نود أن نصف بعض صلات الأعشى ، لولا أننا لا نجد المادة الكافية فى تاريخه وسيرته . وإذا نحن أردنا أن نعتمد فى ذلك على شعره لاضطررنا إلى أن نخترع له الحوادث ، وإلى أن نحمل عليه القصص والأخبار ؛ لأن الأعشى لا يزيد فى شعره على الوصف الكثير ، فإن هو ذكر حادثة فإنما يذكرها ذكراً مقتضباً عاما لكى يخلص بذلك إلى الوصف ؛ فقد كان يجد فيه ، على ما يخيل إلينا ، لذة ومتعة لا يعدلها إلا لذته ومتعته بنفس الجمال المادى الذى يصفه ويتوق إليه ، ولأنه مع ذلك كله لم تكن — فى الغالب — للأعشى صلة طويلة بامرأة معينة ، أو أن من طبعه ألا تدوم له علاقة مع خليلة من خليلاته .

ولقد كان من المنتظر والطبيعى لرجل عاشر المرأة وشاهدها فى أوضاعها المختلفة واختلط بها ومازجها — أن يعرف هذا الرجل شيئاً عن طبيعية المرأة وأن يخبر بعض أسرارها وخفاياها . ولكن الأعشى رجل على العكس من ذلك . فأغلب الظن أنه مات ولم يفهم المرأة ، ولم يعرف كنهها ولا طبيعة مزاجها وأنوثتها على الرغم من كل تجاربه وصلاته بها . والسر فى ذلك بسيط ؛ فالأعشى رجل غلبه مزاجه وامتلكته طبيعته حتى لم يدعا له الفرصة التى ينظر فيها إلى المرأة حرا من قيودها خالصاً من أسرها ، وكانت لذاته وشهواته تغمره وتغرقه فلا تتركه يخرج منها ليدرس أو يمحص ، ولا ليلاحظ أو يحصى ، وكانت نفسه الساذجة تحول بينه وبين ذلك أيضاً . فالأعشى رجل مقامٍ وخدن منتديات ومجالس . إنما كان يحسن المظاهر العملية ويتقن الأساليب المستعملة فى بلوغ غرضه . وكل ما عرفه الأعشى عن المرأة أنها تهجر الشيوخ وتطلب الشبان ، أو أنها تعشق المال وتلفظ الرجل الخالى . وهذه قضايا لا قيمة لها إذا قيست إلى ما كان ممكناً أن يستخلصه من القضايا الأخرى ، ومن الأحكام التى غفل عنها أو غابت عنه أو لم يفطن إليها .

وخلاصة القول فى غزل الأعشى أنه كان عاشق جمال ، يصفه ويتبعه ويمدحه ويحيا به ، ولكنه الجمال الحسى المادى . وكان هذا العاشق عاشقاً يخون أحياناً ويغدر أحيانا أخرى ؛ لأنه لا يرجو من وراء ذلك إلا إشباع نزعاته ، ولكنه

كثيرا ما صور هذا الجمال فى صور بارعة فاتنة ، وأظهره فى مظهر مغر جذاب ، وأحاطه بضروب المباهج وبصنوف الأفراح ؛ لأن الجمال الحسى كان فى حياة الأعشى كل شىء ؛ فهو الذى شكل أخلاقه وطبع عاداته ووجه تصرفاته وأعماله ، ولأن الجمال الحسى كان الهدف القريب الذى تهدف إليه النفس الحية الزاخرة ، وينزع إليه الكائن الممتلىء بالحيوية المرهف نواحى الحس .

وأى شىء أحق هنا بالتحدث عنه بعد المرأة إلا الخمر ، والخمر عند الأعشى خاصة . والحق أن المرأة والخمر كالشىء وظله . ومن الذى يصف الخمر غير الأعشى ؟ ذلك الذى شربها فى أباريق الفضة وكئوسها ، بل قال فى أباريق الذهب :

إذا انكب أزهر بين السقاة ... تراموا به غرباً أو نضارا

قال أبو عبيدة : الأزهر هو الإبريق الأبيض ، والغرب هو الفضة ، والنضار هو الذهب .

وشربها فقيراً كما شربها غنيًّا :

على كل أحوال الفتى قد شربتها ... غنيًّا وصعلوكا وما إن أقاتها

وشرب الأعشى الخمر فى الصباح ، ولم يتركها فى المساء :

وذات نواف كلون الفصو ... ص باكرتها فادّججتُ ابتكاراً
غدوت عليها قبيل الشرو ... ق إما نقالا وإما اغتماراً
فلم ينطق الديك حتى مـلأ ... ت كوب الرباب له فاستزارا

ويشربها الأعشى حتى يهذى ويخلط بين المدركات :

شربت الراح بالقلتين حتى ... حسبت دجاجة مرت حمارا

لأنه مسرف مبالغ :

ولقد شربت ثمانيا وثمانيا ... وثمان عشرة واثنتين وأربعا
من قهوة باتت بفارس صفوة ... تدع الفتى ملكا يميل مصرعا

بل لقد أهلك الأعشى ماله فى هوى الخمر .

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت مالى وكنت بهن قدماً مولعا
الخمر واللحم السمين مع الطلى بالزعفران ولا أزال مروّعا

والأعشى انتجع فى سبيل الخمر البلدان واخترق الصحارى وزار الأديرة :

وكعبة نجران حتم عليـ ـك حتى تناخى بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها
لهم مشربات لها بهجة تروق العيون لإذهابها

والواقع أن مجلس الخمر عند الأعشى كان مجلساً حافلا غنيًّا زاخراً : غنيًّا بالخمر والمال ، غنيًّا بالندماء والفكاهات ؛ فكان يشربها :

فى شباب كمصابيح الدجى ظاهر النعمة فيهم والفرحْ
لا يشحون على المال وما عوّدوا فى الحى تصرارَ اللِّقَحْ

كذلك كان هذا المجلس غنياً بالموسيقا والمأكولات وبالأزهار والرياحين وبالمسك والكافور ، وكان يحتسيها بين مناظر الطبيعة الغناء وبين ربوعها الفيحاء . وكان مجلسه آخر الأمر أو أوله عامراً بأهم شىء أو بالسبب الأول الذى كانت تقام هذه المجالس من أجله ، وهى القيان والراقصات والمغنيات أو المرأة :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها
وشاهدنا الورد والياسميـ ـن والمسمعات بقصابها
ومزمرنا معمل دائم فأى الثلاثة أزرى بها ؟

وقال :

يا من رأى عارضا قد بت أرمقه كأنما البرق فى حافاته الشعلُ
لم يلهنى اللهو عنه حين أرقبه ولا اللذاذة من كأس ولا كسل
فقلت للشِّرب فى دُرْنىٰ وقد ثملوا شيموا . وكيف يشيم الشارب الثمل ؟
برقا يضىء على أجزاع مسقطه وبالخبية منه عارض هطل

ولكن الأعشى عندما يصف الخمر يصفها وصفاً ظاهريا ، يصف وجودها الخارجي وألوانها وكؤوسها ، ويصف مجالسها والحاضرين فيه ، ويعين أوقات شربها وكمية هذا الشراب دون أن يزيد على ذلك وصف أثرها فى النفس ، ذلك الأثر المعنوى المجرد ، ودون أن يذكر أحوال الخمار ومعانى السكر والغيبوبة أو أحاسيس الذهول والنشوة ، وصلة ذلك كله بالحياة والوجود والموت .

ويحسن بنا أن نذكر وصفاً كاملا لمجلس من مجالس الخمر عند الأعشى ، لنتبين حقيقة ما نقول :

وشمول تحسب العين إذا صُفِّقت وُرْدَتها نور الذَّبح
مثل ذَكِى المسك زاكٍ ريحها صبَّها الساقى إذا قيل تَوحّ
ذات غور ما تبالى يومَها غرف الإبريق منها والقدح
وإذا مكوكها صادمه جانباه كر فيها فسبح
فترامت بزجاج معمل يخلف النازح منها ما نزح
تحسب الزق لديها مسنداً حبشيًّا نام عمداً فانبطح
ولقد أغدو على ندمانها وغدا عندى عليها واصطبح
ومغن كلما قيل له أسمع الشَّرْبَ فغنى فصدح
وثنى الكف على ذى عَتَبٍ يصل الصوت بذى زير أبح
فترى الشرب نشاوى كلهم مثل ما مدت نصاحات الربح
بين مغلوب كريم خده وخذول الرجل من غير كسح
وشغاميم جسام بُدَّنٍ ناعمات من هوان لم تُلَح
كالتماثيل عليها حلل ما يوارين بطون المكتشح

وأخيراً لم يكن شرب الخمر فى الجاهلية عيباً فى ذاته ، إنما كان العيب فى الإدمان والإسراف . ولقد أسرف الأعشى حتى فاق سائر الناس . ونحسب نحن أن ما شجعه على ذلك وحفزه إليه إنما هو جريه وراء المرأة ، وطلبه لها فى أى صورة تكون وفى أى مكان توجد ، وحرصه على أن يحيطها بأنواع اللذات وشكول المتع ، مع إسراف الحس ومبالغة الرغبة الكامنة فى طبعه ومزاجه .

على ابراهيم الأقوطه